# منظور أ. د. الأنصاري بين البعد الآثاري والحس المكاني
## قراءة تحليلية لمدرسته الآثارية

يحيى بن محمد شيخ أبو الخير

### تمهيد

لا تخفى على أحدٍ مكانة المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري العلمية الرائدة، وألقه المتجدد النابض بالفكر والمعرفة والثقافة. وقبل كل شيء وبعده فهو عالم الآثار المعروف، وعرّاب الكتابات العربية القديمة والنقوش، ذائع الصيت، ومؤرخ حضارات جزيرة العرب الشهير، وعالم الإنسانيات المرموق، والمفكر والعلامة الموسوعي الأريب، واللغوي الأديب، والأستاذ الجامعي البارز الذي ملك قلوب زملائه وتلامذته، وتربع على عروش أفئدتهم بما لا تستوفي وصفه أحرف وسطور.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الدكتور الأنصاري -طيب الله ثراه- قد عاش طيلة حياته آملًا ألّا يغادر دنياه إلّا وقد كوّن مدرسة علمية آثارية ذات منظور معرفي، ينتفع به الأجيال، ويكون صدقة جارية له بإذن الله بعد مماته. وأزعم أن الله قد حقق له آماله، فأضحى في زمن قياسيّ صاحب مدرسة معرفية أنصارية فريدة عابرة للحدود، يتفيأ ظلال منظورها الآثاري جيلًا بعد جيل كلّ ذي شغف بالعلم والمعرفة والثقافة. ولذا اكتسب هذا المنظور مع الزمن مكانة معرفية مرموقة في الأوساط العلمية المحلية والإقليمية والعالمية، وارتقى ليصبح منظورًا ذا علامة علمية استقراء- استدلالية فارقة.

وأزعم أنني أول من كتب عن العلامة الفارقة لهذا المنظور بالتفصيل الذي بين أيدينا في هذه الورقة، بل وأول من وسم عنوانها بالعبارة المصطلحية التالية: «منظور الدكتور الأنصاري بين البُعد الآثاريّ والحِسّ المكانيّ: قراءة تحليلية لمدرستة الأنصاريه». وكلي أمل أن تصبح هذه العبارة الآنفة الذكر العلامة الفارقة المسجلة، التي يُعرف بها منظور الدكتور الأنصاري -رحمه الله- في الأطر المرجعية الآثارية، والأوساط الأكاديمية، والمحافل العلمية، وبخاصة المحلية منها، على أقل تقدير. كما أنني كلي أمل أن لا يخفت وميض هذا الوسم؛ كي يبقى -رحمه الله- حيًا بيننا بمنظوره وبمدرسته الآثارية التي أبلى في تكوينها بلاءً حسنًا، طيلة درب مشواره العلميّ المتفرّد الأصيل.

وبناءً على ما تقدّم، لا غرابةَ إذًا في أن أسطر أحرف هذه الورقة التي أهدف منها إلقاء الضوء على جوانب من ذلك المنظور الذي حقق الله للدكتور الأنصاري به حلمه، فأخذ على مدى خمسين سنة يغرس جذوره الفلسفية والمعرفية، ويهيئ له البيئة العلمية الخصبة التي ترعرع فيها وشبّ في مراحل مبكرة منه عن الطوق، وانطلق حرًا مؤثرًا في مسار البحث الآثاري السعودي وتوجهاته النظرية والتطبيقية المعاصره.

يُعرف المنظور «Paradigm» في الأطر المرجعية المعاصرة بأنه أنموذج يستحدثه صاحب دُربة مجمعٌ عليه ليُوظِّفَه نقلًا عنه أهل فن عالٍ في الدُربة؛ لِحَلِّ أزمةٍ فكريَّةٍ أو إجرائيَّةٍ، عجز الأنموذج السائد في الساحة العلمية المعنية عن حلها أو تجاوزها (ابو الخير ٢٠١٣).

ونتيجة لهذا الوضع أو التحوّل في أنماط النماذج، تتغير نظرة العلماء للعلوم لتحلّ مكانها نظرةٌ علمية محدثة مغايرة لما كان سائدًا في تلك الساحة من قبل الأزمة وأثنائها (كون ٢٠٠٧).

وأزعم أن أفكار الدكتور الأنصاري الآثارية المتجددة، وآراءه الوثّابة، ورؤاه التوليدية للأنساق العلمية الآثارية

ودُربته التحوليّة الغنيّة بمعارف حقله العلمي وحِسِّه المكانيّ الجيوانثروبولوجي هي التي جعلته -في رأيي- صاحب منظور آثاري وطني عروبي فاعل، ناضج جيومكانياً، يتسق في مجاله نظريًا وإجرائيًا بامتياز مع مصطلح المنظور المتداول في الساحة العلمية العالمية، ومع أطرها المرجعية التنظيرية والتطبيقية. وإضافة لما ذُكِر، لعبت عوامل شتى أخرى في بلورة هذا المنظور وتسامِيه زمكانيًا؛ منها على سبيل المثال لا الحصر العامل التخصصي اللغويّ والمعرفيّ، والعامل البحثيّ، والعامل الميدانيّ التنقيبيّ، والعامل المنهجيّ التدريسيّ.

ستتم مناقشة هذا المنظور من خلال محورين رئيسين، أولهما مجالات المنظور ودعائمه الآثارية المكانية، وثانيهما الأبعاد النظرية والتطبيقية للمنظور بين البعد الآثاري والحس المكاني، هذا بالإضافة الى خاتمة تضم أهم استنتاجات هذه الدراسة وذلك على النحو الآتي:

## المحور الأول: مجالات المنظور ودعائمه الآثارية المكانية

يتألف منظور الاستاذ الدكتور عبدالرحمن الأنصاري بين البعد الآثاري والحِسِّ المكاني من عدة مجالات أثارية زمكانية حيوية؛ تنظيرا وتطبيقًا. وفيما يلي شرح لتلك المجالات:

### المجال الأول: النقوش والكتابات العربية القديمة:

انطلاقًا من تخصص الاستاذ الدكتور الأنصاري رحمه الله في النقوش والكتابات العربية القديمة في مرحلة الدكتوراه واللغة العربية في مرحلة البكالوريوس فقد حظي هذا المجال باهتمامات الدكتور الانصاري العلمية النظرية والتطبيقية في مرحلة مبكرة جدا، أثناء بعثته، وبعد عودته منها. وفي هذا الصدد أشار -طيب الله ثراه- في أكثر من مصدر مقروء ومرئي ومسموع، كالمحاضرة التي ألقاها في منتدى الجمعة بالرياض عام ٢٠١١ بعنوان «نظرات في آثار الجزيرة العربية»، إلى أنَّ بعض الرحالة الغربيين قد اهتموا منذ زمن ليس بالقصير بالنقوش والكتابات العربية القديمة بجزيرة العرب، واستخلصوا منها قوائم بالدول العربية القديمة. كما وضع أولئك الرحّالة سلاسل لأسماء الملوك والأمراء الذين عاشوا فى شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها. ورغم كل ذلك الإهتمام بدراسة النقوش والكتابات العربية القديمة إلا إن أولئك الغربيين لم يفيدو غيرهم بها، كما أنهم لم يهتموا منهجيًا بالتسلسل التاريخي الآثاري لتلك النقوش والكتابات؛ فدرسوها منفصلة عن تسلسلها الطبقي أو التاريخي الذي يجب أن يتبع في تنقيب المواقع الأثرية. ولسد هذا النقص المنهجي وضع الدكتور عبدالرحمن الأنصاري برنامجًا بحثيًا شاملًا ودقيقًا، تم بموجبه جمع النقوش والكتابات العربية القديمة في المملكة العربية السعودية، وتطوير سبل الكشف عنها وتفسيرها وتبويبها وتصنيفها، وقياسها وتزمينها وربطها بواقع من حِسِّه المكانيّ بالمواضع التي اُكتُشفت فيها، مع سَلسَلتها تاريخيًا ضمن الحضارة التي تعود إليها تلك النقوش والكتابات.

ولا شك أن ذلك البرنامج وسبل تنفيذه قد مثّلا معًا البنية التحتية الأساس التي شيّد عليها الأنصاري قواعد منظوره الآثاري وأرسى أصوله، منذ مرحلة مبكرة من تاريخه الأكاديمي، بعد عودته من البعثة، كما أشرت إلى ذلك آنفًا.

وتطبيقًا لتلك البنية التحتية وتحقيقًا لأهداف خطتها التنفيذية، فقد ربط الدكتور الأنصاري النقوش والكتابات التي درسها في كل من الفاو والعلا -على سبيل المثال لا الحصر- بفتراتها التاريخية وبالتسلسل الزمني للمواقع التي تعود إليها، أو التي اكتشفت فيها؛ وليس ذلك فحسب، بل ربطها أيضا بواقع من الحس المكانيّ بين النقوش والكتابات قيد البحث، وبين الثقافة التي تحتويها المواضع التي اكتشفت فيها.

### المجال الثاني: تزمين حضارات الجزيرة العربية وترتيبها تاريخيًا:

يشمل منظور الدكتور الأنصاري بين البعد الآثاري والحس المكاني أيضًا مجالًا مهمًا آخر، يتعلق بضرورة

تزمين حضارات الجزيرة العربية وترتيبها، وفق تسلسلها التاريخي وسماتها المكانية الأنثروجيوبيولوجية بدلا من دراسة كل حضارة منفردة عن غيرها كما كانت تدرس من قبل مثلًا كطسم وجديس وسبأ وتدمر دونما رابط تاريخي يجمعها. وقد سبب هذا الأمر لدارسي تاريخ الجزيرة العربية وآثارها أزمة علمية استعصت عن الحل عقودًا عديدة؛ كما أدى ذلك في الوقت نفسه الى حدوث بلبلة بين المتلقين لهذا العلم، وبخاصة بين أولئك من غير المختصين الذين لا يستطيعون النظر في الأمر وتحرير الرأي فيه. ولحل هذه الأزمة وأسوة بما فعله الآثاريون في مصر والأردن وسوريا والعراق، قدّم الأنصاري لقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود خطة عمل ضافية ليتم بموجبها تزمين حضارات الجزيرة العربية، وربطها ببعضها تاريخيًا وتصويب الأخطاء التي تضمّنتها بعض متون المؤرخين المسلمين، التي كتبت بعد عقود عدة من الأحداث تلك الحضارات قيد النظر. وبناء على تلك الخطة، استطاع الدكتور الأنصاري ومَن عملوا معه من زملائه في هذا المجال ربط الحضارات ببعضها بعضًا ربطًا منظومياً مُحكمًا، وتزمينها تاريخيًّا وثبّتها تنازليًا من أقدم الحضارات إلى أحدثها زمكاني، بما في ذلك الفئة التي اصطلح على تسميتها بثقافات الجزيرة العربية التى تنتشر في معظم أرجائها. وأول ما بدأ به هذا التزمين هى حضارات الجزيرة العربية في فجر التاريخ التي تمتد من الألف السادس حتى الألف الرابع قبل الميلاد (العبيد، فثقافات هيلي، وأم النار، ودلمون). وتعد حضارة العبيد التي سادت في شرق الجزيرة العربية في الفترة الممتدة من ٥٤٠٠ إلى ٣٦٠٠ قبل الميلاد أقدم حضارات فجر التاريخ في الجزيرة العربية. واختلف علماء التاريخ والآثار في بلد منشأ هذه الحضارة، فبعضهم يرى ومنهم الدكتور الأنصاري أنها نشأت شرقي الجزيرة العربية أصلًا ثم انتقلت في مرحلة من تاريخها إلى العراق وبعضهم الآخر يرى عكس ذلك، ويرجح نشأتها أبتداءً في منطقة العبيد بالعراق قبل ان تنتقل فيما بعد إلى شرقي جزيرة العرب. وقد تلت حضارات الجزيرة العربية في فجر التاريخ تاريخيًا ثقافات الأمم العربية الغابرة (عاد، ثمود) إذ سادت منازل عاد كما يعتقد بعض الآثاريين بمنطقة إرم ومنهم الدكتور الأنصاري في النصف الأول للألف الرابع قبل الميلاد، بينما سادت منازل ثمود عند آثاريين آخرين في الحجر أو ربما في غيرها من الأماكن خلال النصف الثاني للألف الرابع قبل الميلاد. وأُتبع ذلك التسلسل بحقبة ثقافات الممالك العربية المبكرة (صبرا، ومدين، وأدوم، وعمون، ومؤاب، وقيدان) التي استمرت من الألف الثاني قبل الميلاد حتى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، لتعقبها في التصنيف ثقافات الممالك العربية الوسيطة (سبأ، وديدان، ولحيان، ودومة الجندل، ومعين، وقتبان، والأنباط، ومملكة كندة) التى سادت خلال الحقبة الممتدة من الألف الأول إلى القرن الأول قبل الميلاد، لينتهى ذلك التصنيف بثقافات الممالك العربية المتأخرة (العدنانيون أو المعديون، وسبأ الثانية، وتدمر، وحضر العراق، وحمير الثانية، وقحطان، ومذحج، والغساسنة، والمناذرة، وذي ريدان، وكندة الثانية) التي أُرخت بالقرن الأول قبل الميلاد (الأنصاري ١٩٦٩، الانصاري وأبوالحسن، ٢٠٠٥، الأنصاري٢٠١١، نظرات في آثار الجزيرة العربية، محاضرة، منتدى الجمعة، الرياض).

وفي بداية القرن الرابع الميلادي غزا الملك أمرؤ القيس المنذري نجران مرورًا بالفاو لمحاربة ملك حمير هناك. ويشير الدكتور الأنصاري في هذا الصدد إلى أن كل النقوش التي اكتشفت في ممالك جنوبي الجزيرة العربية تسمي قرية الفاو بكندة وبذات كهل أيضًا نسبة إلى معبودهم كهل. ولكنه لم يجد نقوشًا أو كتابات تؤكد أن قرية الفاو هي كندة، بل على العكس من ذلك تؤكد تلك النقوش أن قحطان التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي أي في عهد ملك قحطان ومذحج معاوية بن ربيعة هى التي حكمت قرية الفاو آنذاك. ويؤكد الأنصاري أن كندة انتقلت في مرحلة من تاريخها إلى الشمال بعد سقوطها في الجنوب، واستقرت في القصيم، وحفر الباطن، وربما في غيرها من بلدان شمال جزيرة العرب باسم كندة الثانية. وكانت الحروب آنذاك سجالًا بين الغساسنة وكندة الثانية، ولذا حسب

الدكتور الأنصاري كانت دومة الجندل محط حكم السكونيين عندما ينتصر الكنديون؛ أما إذا انتصر الغساسنة، فتحكمها قبيلة كلب التي سيطرت آنذاك على منطقة الجوف. وعلى أية حال يؤكد الأنصاري أن دومة الجندل وقت بزوغ الإسلام كانت تحت حكم السكوني الكندي (الأكيبر السكوني)، ولم تكن نتيجة لذلك تحت حكم قبيلة كلب.

**المجال الثالث: السرد التاريخي للأقوام البائدة في القرآن الكريم**

في مقال عن الثمودية كما أرخها القرآن الكريم، ومقال آخر عن فهم السرد التاريخي للأقوام البائدة في القرآن الكريم، أحدث من سابقه في النشر، أضاف الدكتور الأنصاري إلى مجالات منظوره القرآن الكريم كمصدر مهم استمدَّ منه بدقة، الإطار التاريخي لأقوام جزيرة العرب، الذين يتعذر تتبعهم تاريخيا في التوراة والإنجيل، وبخاصّة قوم عاد وقوم ثمود اللذين تفرّد القرآن الكريم بذكرهما في عدة سياقات دونما سواه من الكتب السماوية (الأنصاري ٢٠٠١، الأنصاري وأبو الخير ٢٠١٤). علما أن الفراعنة -وفق الدكتور الأنصاري- كانت لديهم معرفة كاملة بقومي عاد وثمود، معزيًا ذلك إلى ما أوضحه القرآن في سورة غافر، وتحديدًا في الآيتين الثلاثون والحادية والثلاثون على التوالي من هذه السورة الكريمه، التي أوردهما الله عزوجل على لسان واحد من قوم فرعون يخفي إيمانه، ((وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب)) «الآية٣٠» ((مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلمًا بالعباد)) «الآية٣١».

مما سبق، يتبين إذًا، أن القرآن الكريم تتم أركان الاحتجاج فيه وتكتمل كمصدر تاريخي لأحداث كثيرة تتماشى مع ما وصل إلينا من أخبار من غير سبيل القرآن، أو قد تختلف عنه، وبخاصة عندما يورد القرآن الحدث بمجرياته المكانية والتاريخية الآثارية بكل تفصيل، ويبرز زمان ذلك الحدث مرتبًا تاريخيًا من الأقدم إلى الأحدث وفق أدوات الضبط التاريخي المعتادة مثل: قبل، وبعد، وقرونًا بين ذلك كثيرًا؛ ما يلقي بكل تأكيد ظلالا على سرد قرآني ذي أهمية منهجية فريدة غير مسبوقة تاريخيًا (الأنصاري ٢٠٠١، ص ص ٩-١٠، الأنصاري وأبو الخير، ٢٠١٤ ص ١١٦). وعليه، فقد رتبّ الدكتور عبدالرحمن الأنصاري السرد القرآني الجيوتاريخي الزمكاني للأقوام البائدة في جزيرة العرب زمنيًا أو تاريخيًا حسب السور القرآنية على النحو الآتي: (الأنصاري وأبو الخير، ٢٠١٤، ص١١٦).

- قوم نوح ٦٠٠٠ ق.م.
- قوم هود (عاد) ٤٠٠٠ ق.م.
- قوم صالح (ثمود) ٣٥٠٠ ق.م.
- قوما إبراهيم ولوط ١٨٠٠ ق.م.
- قوم شعيب (مدين) ١٥٠٠ ق.م.
- قوم فرعون (موسى) ١٢٠٠ ق.م.

أما أصحاب الرسّ الذين يعدون فرعًا عن ثمود وأصحاب الأيكة الذين يعدون فرعًا عن مدين، لم يرد ذكرهم في التصنيف الزمني أعلاه نتيجة لهذا التفريع الحضاري قيد الثبت والتدوين.

**المجال الرابع: نقض تقسيم العرب الى عرب بائدة وعرب عاربة ومستعربة**

يتضمن المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري عددا من المجالات المهمة التي تحوي أنساقًا تناصية ذات أبعاد مفاهيمية تحديثية تفكيكية توليدية استقراء-استدلالية غير مألوفة في بعض الأحايين في الساحة الأكاديمية الآثارية؛ ما يجعلها على الدوام محط الحوار والنقاشات الجادة الهادفة بين المتخصصين في مختلف المجالات الآثارية. وليس ذلك فحسب، بل تحوي هذه النماذج أيضًا مسارات آثارية زمكانية للنظر والتنظير ومنهجيات للتحقق والتدوين الآثاري التي سعى الدكتور الأنصاري لتوظيفها حسب منظوره في تصحيح الأنساق التي تخالف الواقع أو تشذّ عن بنية التناصّ الآثاري التي يقتضيها مشرط النقد التحليلي

العلميّ الموضوعيّ.

ولعل من أهم الأمثلة على تلك المجالات التي يتضمنها المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري هو المجال الذي يتعلق بنقضه تقسيم العرب إلى عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة. والعرب العاربة حسب هذا التقسيم هم القحطانيون أو العرب الأقحاح الذين استوطنوا جنوبي الجزيرة العربية، بينما لا يُعد العدنانيون عربًا في الأصل؛ لأنهم وفقًا لهذا التقسيم جاءوا إلى الجزيرة العربية من خارجها واستوطنوا أقاليمها الشمالية، وهو أمر يرفضه الدكتور الأنصاري رفضًا باتًا ويعده غير صحيح، بل كان يؤكد على أن حضارات الجزيرة العربية هى شمالية المنشأ وليست جنوبية الموطن، كما كان يُظن.

وقد ساق الأنصاري العديد من الحجج التي تعزز رفضه ذلك التقسيم، ونقضه له، ومنها أنه تقسيم حديث بدأ في القرن الثالث الهجري، وبالتحديد في العهد الأموي، ولم يكن تقسيمًا معروفًا عند العرب قبل ذلك القرن. والأدهى من ذلك أن الأمويين – حسب ما ذكره الأنصاري في محاضرته بمنتدى الجمعة المشار إليها آنفًا– قد استغلوا هذا التقسيم سياسيًا لرفع أقوام في الجزيرة العربية وخفض آخرين فيها؛ مستفيدين من الصراع القبليّ الذي كانت تدور رحاه آنذاك بين القيسيين والمضريين. واستشهد الدكتور الأنصاري على عدم صحة هذا التقسيم بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم رحمه الله ونصه أنه «مَّر النبي ﷺ على نفر من «أسلم» ينتصلون فقال رسول الله ﷺ: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا». وقد كان بنو أسلم من بني خزاعة وخزاعة من بني الأزد وهم من القبائل اليمانية القحطانية وليسوا من عدناني شمالي جزيرة العرب. ولذا، يستنبط من هذا الحديث أن جميع العرب ينتسبون إلى مصدر واحد جينيًا، فلا فرق إذا بناءً على هذا الحديث بين ما يسمّى بالعرب العاربة والعرب المستعربة؛ فجميعهم في حقيقة الأمر عرب أقحاح.

**المجال الخامس: الكتابات الثمودية وخرابيش البادية:**

لعل من أكثر المجالات التي يتضمنها المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري جدلًا وخروجًا عن المألوف هو المجال من المنظور الذي أكد فيه خطأ نسبة بعض النقوش المكتشفة إلى الثمودية، وهي في حقيقة الأمر –حسب قوله– ليست من الثمودية في شيء. بل هي حسب استنتاجاته خرابيش بادية الحواضر الذين قلّدوا ما اطلعوا عليه من نقوش ثمودية في الحِجر والعُلا ونجران وغيرها مدللا على صحة رأيه كما أشار إلى ذلك في غير محاضرة أو لقاء أو مؤتمر ومنتدى بحروف كالألف التي تشمل أكثر من خمسة عشر نوعًا استخدمتها بادية الحواضر في تقليدها لأصل الخطوط الثمودية التي وقعت عليها أبصارهم (الأنصاري ٢٠١٥، نظرات في آثار الجزيرة العربية، محاضرة ألقيت في منتدى الجمعة بالرياض). كما فرق الأنصاري في هذا الصدد بين الثمودية والأنباط عادًّا ثمودَ الحِجر باديةَ ثمود، بينما الأنباط التي سادت دولتهم في شمال الجزيرة العربية في الحقبة التاريخية التي امتدت من القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي هم حضر أولئك القوم.

**المجال السادس: ملكات سبأ بين شمالي جزيرة العرب وجنوبيها:**

يعد هذا المجال في رأيى المتواضع من أكثر مجالات المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري إمتاعًا، وإثراءً للفكر التاريخيّ السياسيّ والأنثروجيوبولوجيّ، وخروجًا في الوقت نفسه عما ألفته الأطر المرجعية في الساحة الأكاديمية الآثارية بأسرها لفترة طويلة من الزمن.

فيذكر الدكتور الأنصاري في هذا الصدد أن قراءة متأنية للآلاف من الكتابات التي وجدت في جنوبي الجزيرة العربية، سواءً في سبأ أو حضرموت أو قتبان أو معين تؤكد بما لا يدعو مجالًا للشك عدم وجود ذكر لاسم ملكة عربية أو أميرة عربية هناك. بل إن كافةَ النصوص التي وجدت في شمالي جزيرة العرب تؤكد وجود ملكات كن يحكمن في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد مملكة عربية سبأية صغيرة في دومة الجندل بشمالي هذه الجزيرة. ويتزامن هذا التاريخ حسب

الدكتور الأنصاري مع فترة حكم النبي سليمان عليه السلام في فلسطين التي لم تكن جغرافيًا بعيدة عن هذه المملكة، فقد قال تعالى مؤكدًا هذه الحقيقة في الآية الثانية والعشرين من سورة النمل في حكايته عن هدهد سليمان:﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تُحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾. يضاف إلى ذلك أن الشمس كانت معبود تلك المملكة الرئيس ولم تكن الشمس معبودًا رئيسًا في جنوبي الجزيرة العربية، بل كان القمر هو المعبود الرئيس هناك (الأنصاري ١٩٧٥: ص ص ٨٢-٨٤، الأنصاري ٢٠٠٨، الأنصاري وأبو الخير ٢٠١٤: ص ١١٤). ويعزز القرآن الكريم أيضًا هذه القضية بوضوح على لسان هدهد سليمان عليه السلام في الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين على التوالي من سورة النمل: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم﴾«٢٣» ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون﴾«٢٤».

ويستدل بعض المؤرخين على الربط بين أسماء أولئك الملكات العربيات وبين دومة الجندل بعثور المنقبين على أسماء بعضهن في النصوص الآشورية، في حين لم يعثر العلماء حتى الآن كما أسلفت على اسم ملكة أو أميرة في الكتابات العربية الجنوبية (علي ١٩٦٩ :٥/٦٠٠-٦٠٥، مهران ١٩٩٤: ٢/٢٨٨-٢٨٩). ولعل أصحاب هذا الرأى يذهبون الى أن السبئيين إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمالي بلاد العرب وتحديدًا في الجوف أو بالقرب منها، وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في بلاد العرب الجنوبية إلا نحو ٨٠٠ ق. م. أي بعد ما يقرب من قرنين من زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام (الأنصاري وأبو الخير ٢٠١٤: ١١٤).

## المحور الثاني: الأبعاد النظرية والتطبيقية لمنظور الأنصاري بين البعد الآثاري والحس المكاني

لقد سدَّ المنظورُ الآثاريُّ لمدرسة الأنصاري النقص الذي اعترى بعض الدراسات ذات العلاقة بالحقبة الآثارية القديمة في جزيرة العرب، ورأب الصدع بدافع من حسّ الدكتور الأنصاري المكانيّ بينها وبين مواضع المكتشفات الآثارية ومواقعها الجغرافية، من ناحية، وبقية المواقع الجغرافية المترامية المواضع في العالم القديم، من ناحية أخرى. كما استطاع الأنصاري إعادة النظر من خلال منظوره في بعض محتويات الأطر المرجعية في شتى المجالات الآثارية كجمع النقوش وتحليلها، ورصد الكتابات القديمة، وتحقيق التاريخ، وتقنين التنقيب الآثاري وتقعيده وتطويره، وتزمين حضارات الجزيرة العربية وتسلسلها تاريخيا وربطها بسمات المكان الذي اكتشفت به وخصائصه الجغرافية وببصمته الانثروجيوبيولوجية. وقد مكنته قدرته المنهجية الاستقراء - استدلالية والاستنباطية والاستردادية والتبويبية والتصنيفية والقياسية المعيارية والمجانسة بين الأحداث والتمييز بين تلك المجانسات بالقرائن الجائزة من تأطير حديات مدارك العقل المحض، وكبح جماح تجلياته المؤثرة سلبًا في سلامة التحليل الموضوعي لفرص النظرة الآثارية قيد البحث، وتعميق جوانب التحقيق المختلفة للأحداث التاريخية قيد الاستقصاء والتدوين الآثاري.

ونتيجة لذلك فقد حدّ المنظور الآثاري المعياري الاتجاه لمدرسة الأنصاري بطبيعة الحال من فرص جنوح الأطر المرجعية الآثارية المعاصرة واحتمالات وقوعها في براثن الزلل والتزوير، وإملاءات الأهواء والنزوات. كما حدّ هذا المنظور أيضًا من التأثير السلبي للأطر المرجعية الآثارية الاستشراقية وتوجهاتها الفكرية ومنطلقاتها التفسيرية للكتابات والنقوش الآثارية، التي تختلف -وفق الدكتور الأنصاري- عن منطلقاتنا التفسيرية لها في ذات المجال. فمن خلال منظوره تم الفصل منهجيًا بين بنية منظوره المفاهيمية الحقيقية وعشوائية التنظير الجامح التي قد يأويها من ناحية، وفرص النظر المحتملة الجانحة التي قد تعتريه من ناحية أخرى.

كل تلك الجهود قد شكلت في نهاية المطاف منظورا آثاريا فريدا ذا علامة منهجية فارقة نظريا وتطبيقيا. وقد لعبت تلك العلامة الفارقة في الساحة

الأكاديمية الآثارية الوطنية دورًا حيويًا فاعلًا، مكّن في رأيي المتواضع المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري من اشتقاق السرديات الآثارية المحكمة التعميمات التنظيرية الصادقة التى أخضعها الأنصاري عبر منظوره لفرص التكذيب البوبري (بوبر ١٩٩٧) متجاوزًا بكل كفاءة واقتدار فرص البرهان الكووني (كون ٢٠٠٧) المعطل لصيرورة المنجز الآثاري البشرى المأمول.

وقد أدى هذا التأصيل المنهجي المعرفي الراجع التغذية إلى نقل أصوليات السرد الآثاري وتطبيقاته من مرحلة المعلومات الى مرحلة المفاهيم، ومن مرحلة التجريد الوصفي المحض الى مرحلة التأسيس المكاني والإسقاطات الجيوأنثروآثارية؛ وليس ذلك فحسب، بل ومن مرحلة التعميم الاستقرائي الى مرحلة التعميم الاستقراء-استدلاليّ المكانيّ الموحّد، ديدن الفكر المعاصر ومنهجه العلمي الرشيد (أبو الخير ١٩٩٥). ولهذا تفرد هذا المنظور نظريًا وتطبيقيًا وتميز في قدرته على تحويل الحقائق الآثارية غير المنظمة عبر آليات التبويب والتصنيف ومنطقية القياس إلى حقائق منظمة (أبو الخير ١٩٩٢)، بل جانس الأنصاري بين منظوره الآثاري وأطر الحقائق والقرائن الجائزة التي وظفها لتقرير مدى ملاءمة سيناريوهات النظر المفترضة لنماذج المحاكاة القبلية المحتملة للهيئة الميدانية التنقيبية التي تقتضيها البنية الإجرائية المكانية للمنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري.

## الخاتمة: أهم الاستنتاجات

بناءً على ما تقدم، يمكن التقرير أن المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري قد اتخذ منحى التنظيريين الفيزيوكيميائيين الذين شغفوا بالبحث فى خواص المادة والعلاقة بين وحداتها، اعتمادا على العقل والحدس والتأمل، ثم الحدس والرصد والتدقيق والتحقيق والتجربه. ولا شك أن هذا المنحى قد لعب دورا فاعلا في استنباط الأنصاري للتعميمات التنظيرية الاستقراء-استدلالية التي وجهت رؤياه التاريخية وشكّلت في نهاية المطاف منظوره الآثاري، وبلورت مدرسته المعرفية الزاخرة بالأنساق الحضارية تبويبا وتصنيفا وقياسا. ولذلك جال الدكتور عبدالرحمن الأنصاري وصال حرا طليقا، منفتح الذهن، لا يحدّه تخصص، ولا تعيقه عن التأمل والنظر فكرة مسبقة أيدولوجية دوجماتية غير براجماتية موغلة فى الطيف الداكن أو الرمادى؛ فصنع نتيجة لكل ذلك منظورًا معرفيًا آثاريًا معاصرًا ذا علامة فارقة تم بموجبه إحلال الدراسات الآثارية التقليدية بدراسات حديثة جادة مبتكرة أثرت البحث الآثاري المعاصر في الجزيرة العربية بشكل عام، والمملكة العربية السعودية بشكل خاص. وقد عاش الدكتور الأنصاري نشوة الأمل وزهوه إلى أن لقى ربه قرير العين نتيجة لتبنى بعض الآثاريين السعوديين من زملائه وطلابه الجانب المنهجي من منظوره المتمثل في جمعهم معه قبل رحيله النقوش والآثار بعضها إلى بعض، وتزمين حضارات الجزيرة العربية بإشرافه وربطها ببعضها تاريخيًا.

وتؤكد استقراءاتي للمسار التطبيقي للمنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري وما يتعلق بهذا المسار من أبحاث ودراسات تنقيبية أجريت في الفاو والعلا مثلًا، شغف الدكتور الأنصاري في تلك التنقيبات وغيرها بالجمع بين النقوش وتزمينها وربطها بتاريخ المواقع التي اكتشفت فيها، وماهية الحضارة التى تنتمي إليها، وفق منظومة مرجعية استقراء-استدلالية مفتوحة راجعة التغذية، تضمن لتلك المنظومة شموخ فلسفتها المعرفية، وتجدّد أطرها المفاهيمية، وديمومة أبعادها الإجرائية زمكانيًا. ويعد علم الآثار عند أ. د. عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري، كما يبدو لي من مختلف أطروحاته ومنجزاته الزاخرة، أسلوب حياة، ونمط تفكير، وطريقة فكر، ووسيلة استنباط وقياس واستدلال واسترداد. وكلي أمل في أن لا تخفت جذوة هذا الانتماء الأنصاري للآثار، وأن تجد من زملائه وطلابه الأوفياء مَن يغذّيها بفضل من الله بطاقات الراحل الديناميكية التي عوّدهم عليها وتعودوا هم عليها أزمنة مديدة. كما آمل أن يبقى الدكتور الأنصاري رحمه الله حياً بيننا، وأن يبقي المنظور الآثاري لمدرسة الأنصاري علما يرفرف مدى الأزمان ومصباحًا يضئي دروب الأجيال القادمة بالعلم والمعرفة.

**أ. د. يحيى بن محمد شيخ ابوالخير: قسم الجغرافيا - كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية - جامعة الملك سعود - المستشار العلمي بمعهد الأمير سلطان لدراسات البيئة والمياه والصحراء.**

## الهوامش:

(١) محاضرة ألقيت في اللقاء الذي عقدته الجمعية الجغرافية السعودية؛ وفاء للأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري، رحمه الله، بعنوان: "مسيرة رائدة بين الأثر والمكان"، الساعة التاسعة مساء الثلاثاء ٢-١٢-١٤٤٤هـ (٢٠-٦-٢٠٢٣م).

## المراجع:

### أولًا: المراجع العربية

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٦٩، «أضواء على تاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الأسلام»، **مجلة قافلة الزيت**، شركة أرامكو-إدارة العلاقات العامة، مج١٧، ع١، ص ص٣-٦،

علي جواد، ١٩٦٩، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٢،ج٥، دار العلم للملايين، ط١، بيروت

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٧٥، «لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال وشمال غربي الجزيرة العربية»، **الدارة**، ع١، ص ص ٧٥-٨٧، الرياض

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٧٧، **أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار ونقوش قرية الفاو**، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ص ص ٨٦٤-٨٧٥، الرياض

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٨٢، **قرية الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، جامعة الملك سعود، ٤٣١ ص، الرياض

ابوالخير، يحيى محمد شيخ ابوالخير، ١٩٩٢، «النظرية والقانون في العلوم الإنسانية التطبيقية»، **العصور**، م٧،ج١، **دار المريخ، الرياض**

مهران، محمد بيومي، **١٩٩٤، تاريخ العرب** القديم،ج٢، دار المعرفة الجامعية، ط١١، الإسكندرية

أبو الخير، يحيى بن محمد شيخ، ١٩٩٥، «نحو منهج موحد في الجغرافيا التطبيقية، الجمعية الجغرافية السعودية»، **سلسلة بحوث جغرافية**،ع٢٢، ص ص ٥-٤٥ الرياض

بوبر، كارل، ١٩٩٧، **منطق الكشف العلمي**، مترجم، النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٤ص

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٠١، «ثمود والثمودية١، ثمود كما أرخها القرآن الكريم»، **مداولات اللقاء العلمي السنوي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية**، جامعة السلطان قابوس، مسقط

-الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وحسين بن علي ابوالحسن،٢٠٠٥، **العلا ومدائن صالح(الحجر) حضارة مدينتين**، دار القوافل للنشر والتوزيع، ص ١١٢، الرياض

كون، توماس صموئيل، ٢٠٠٧، **بنية الثورات العلمية**، مترجم، المنظمة العربية للترجمة،٣٨٩ ص

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٠٨، **الجوف« قلعة الشمال الحصينة«، سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور**، دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠١١، **نظرات في آثار الجزيرة العربية**، محاضرة (فيديو يوتيوب)، منتدى الجمعة، الرياض

ابوالخير، يحيى محمد شيخ، ٢٠١٣، **دراسات في نظرية المعرفة**، الجمعية الجغرافية السعودية، جامعة الملك سعود، ص ٢٢٨، الرياض

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ويحيى بن محمد شيخ أبوالخير، ٢٠١٤، «نحو فهم السرد التاريخي في القرآن الكريم»، **أدوماتو**: ٢٩، مؤسسة عبدالرحمن السديري ص ص ١١٣-١٢٢، الرياض

### ثانيًا: الفيديوهات:

الانصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٩١، **أمسية الإثنينية ١١٥**، جدة (يوتيوب)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠١٠، **نظرات في آثار الجزيرة العربية قبل الإسلام**، محاضرة، منتدى بامحسون، الرياض(يوتيوب)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠١١، **نظرات في آثار الجزيرة العربية**، محاضرة، منتدى الجمعة، الرياض(يوتيوب)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب،٢٠١٦، **برنامج مراجعات ثقافية**، التلفزيون السعودي، الرياض(يوتيوب)

الأنصاري،عبد الرحمن الطيب، ٢٠١٩، **برنامج ما بين أيديهم**، التلفزيون السعودي، الرياض(يوتيوب)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٢٢، **برنامج أيام من حياتهم**، التلفزيون السعودي، الرياض(يوتيوب)

-الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٢٣، **المنقب الأول**، فيلم وثائقي(يوتيوب)